صدر عن المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات كتاب "اللغة العربية في ساحات الوغى: دراسة في الأيديولوجيا والقلق والإرهاب"، وهو من تأليف الباحث ياسر سليمان معالي. يتضمن هذا الكتاب أربعة فصول تتمحور حول مواضيع الترميز والوصل والفصل والمغايرة، والأيديولوجيات اللغوية وتداخلها مع الرمز، و"القلق" و"القلق اللغوي" و"القلق اللغوي العربي"، واللغة العربية والإرهاب، والسياسة اللغوية الأميركية، وغيرها. ويقع الكتاب في 408 صفحات، شاملة ببليوغرافيا وفهرسًا عامًّا.

دورَا اللغة الأداتي والترميزي

من الأمور المهمة في اللغة عمومًا التمييزُ بين دور اللغة الأداتي (من الأداة) ودورها الترميزي (من الرمز)، فالأداتي يختص بوظيفة اللغة التواصلية التي توفّر وسائل للتواصل تتيح قضاء الجماعة حاجاتها، وهذا ما ذهب إليه أبو عثمان بن جنّي في الخصائص، وهو من أشهر الكتب في فقه اللغة وفلسفتها وأسرار العربية ووقائعها، فقد عرّف اللغة بأنّها "أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم". وهذا التعريف لا يحيل إلى مفاهيم مفتاحية لتعريف اللغة في علم اللسانيات الحديث، مثل مفهومَي "البنية" و"النظام" وغيرهما، لكنه يعبّر بحصافة عن أنّ وظيفة اللغة الأساسية هي التواصل الذي لا تستقيم الحياة من دونه، فقد انصبّ اهتمام علماء اللغات عبر التاريخ على دراسته وتقنينه، ومحاولة فهم تمثّلاته الذهنية لفكّ شيفرة التداول بين البشر صوتيًّا وكتابيًّا.

أما الدور الترميزي للغة، فقد هُمِّش نتيجةَ الاستغراق في دراسة دورها الأداتي. وتكون اللغة انطلاقًا من الدور الترميزي رمزًا مجتمعيًّا يُستدَلّ به على الجندر، ومستوى الأفراد التعليمي أو الطبقي، والدين والمعتقد، والانتماء السياسي، والولاء الإثني، والمواطنة أو القومية، والعلاقة بالماضي... إلخ. وعلى سبيل الاختصار، تتعلق وظيفة اللغة الترميزية بالقضايا "المابعد لغوية" Extra-linguistic فتربطها، والحالة هذه، بعوالم الاجتماع والسياسة والاقتصاد والإعلام والتاريخ، وغيرها، وهو ربطٌ تؤدي دراسته إلى إثراء فهمنا ظاهرةَ اللغة بوصفها منتَجًا ثقافيًّا متشعبكًا (نحت من "متشعب" و"متشابك").

ولعدم إيلاء الدرس اللساني الحديث هذا الدورَ الأهميةَ التي يستحقها أسباب، نذكر منها تعارض النظر فيه مع

منطلقات تأسيسية في اللسانيات الحديثة، مثل "مبدأ تساوي اللغات" و"ديمقراطية المعرفة" وغيرهما، أو لأنّه عصيّ على التقنين المنهجي الذي تلتزم به اللسانيات للانخراط في سلك العلوم الملتزمة صرامة المناهج والمعايير، والمُمأسسة على أعراف وتقاليد لا تعدُّ اللغة – بوصفها رمزًا – شأنًا لسانيًّا مُهمًّا، وهو توجُّه يشبه توجّسَ بعضهم من الدراسات البَينيّة أو الـ "عبر-تخصصية" في العلوم الاجتماعية لأنّها ترفض الغوص في العلوم "البحتة" وتصدر عن منهجيات انتقائية لتبقى على الهامش.

وعلى الرغم مما سلف، فقد خُصص كتاب "اللغة العربية في ساحات الوغى" لدراسة دور اللغة الترميزي من خلال الأيديولوجيا اللغوية، والقلق اللغوي، والإرهاب، كما عُدَّ الصراع Conflict السياسي والاجتماعي في الكتاب منطلقًا لإذكاء دور اللغة الترميزي في التعبير عن القضايا المجتمعية الما-بعد لغوية، فاللغة عادة لا يؤبه لها في الحياة اليومية العادية التي تتسم بالرتابة، أما في حالات الصراع فإنها تطفو إلى السطح، وخصوصًا الصراع الهُويّاتي الجماعي، لترسم الحدود بين الـ "نحن" والـ "هُم"، والـ "مَع" والـ "لا-مَع"، ولتفرز الصديق من العدو، ولا يعني انخراط اللغة ترميزيًّا في الصراعات أنها سببها، بل هي بعدٌ من أبعادها وعرَض من أعراضها وإفراز من إفرازاتها مختزنة في ذاكرة الشعوب، التي تَستخدم الدورَ الترميزي للغة في شكل لاإراديّ خلال الصراع لتعبّر عمّا قد يكون محظورًا من دون أن تُجرّم نفسها. ويضرب الكتاب أمثلة على ذلك من خارج اللغة ليوضح ارتباط الموضوع اللغوي بقوّة بقضايا المجتمع الما-بعد لغوية؛ ما يسمح بالربط بين الدرس اللساني وعوالم السياسة والاجتماع.

واستيحاءً من العنوان، اختار الكتاب من ساحات الوغى (ميادين القتال) في مضمار بحثه: الأيديولوجيا والقلق والإرهاب، وقد استعمل كلمة "الوغى" دون مرادفاتها الأخرى، كـ "القتال" و"الحرب"، لأنّ كلمة "الوغى" لدى جمال الدين بن منظور هي القتال مع تداخل الأصوات والضوضاء والجلبة، وهو تمثيل من المؤلِّف لاختلاط مماثل في الأيديولوجيا والقلق والإرهاب.

ويحيل الكتاب إلى أهمية السياقات التاريخية والمجتمعية في دراسة الوظيفة الرمزية للغة في حالات الصراع، فهذه السياقات تُخرج الرمز من التخمين إلى عالم الواقع، كما يربط دورها الترميزي بأحداث عينية؛ مثل الحملة الفرنسية على مصر، ودعوات المستشرقين، وإحلال الرسم اللاتيني محل العربي في الكتابة العربية، واستبدال الفصحى

بالعامية في مصر، وإقصاء المشروع الصهيوني في فلسطين اللغةَ العربية، وعلاقة أحداث 11 أيلول/ سبتمبر 2001 وتبعاتها باللغة العربية. وقد أوضح الكتاب أيضًا علاقة الدور الترميزي للغة الإنكليزية بالهجرة إلى الولايات المتحدة من أقطار أميركا اللاتينية وما شكّلته من تهديد لدى بعض الأميركيين، أو علاقة هذا الدور بالتنافس التكنولوجي بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي خلال الحرب الباردة في عالم الفضاء. وفي الحالة الفرنسية، يشير الكتاب إلى قلق الفرنسيين من غلبة اللغة الإنكليزية الناتجة من العولمة على لغتهم الفرنسية بمعانيها الـ "ما-بعد لغوية". أما الهدف من تنويع الأمثلة السالفة الذكر، فإنه التشديد على كونية الهموم الترميزية التي تعبّر عنها اللغات؛ إذ لا تخلو أيُّ ثقافة من هموم حول لغتها، حقيقية أو متخيّلة، وانتفاء الهمّ اللغوي واستبدال الحنين والشجن به لا يكون إلا عند انقراض اللغة، كما هو مبيّن في الحديث عن "القلق اللغوي"، وعن أن الثقافة اللغوية العربية لا تُغرّد خارج "السِّرْب الإنساني".

أما دراسة دور اللغة الترميزي إمبريقيًّا، فتستدعي الانفتاح على كل أنواع التعبير اللغوي: الصوت، والرسم الكتابي، والشعر، والنثر، وغير ذلك، ومن ثم اهتمت مادة الكتاب بالقصيدة وخُطْبة الجمعة، وبيان المؤتمر، والمادة الإعلامية، والرسالة، والكاريكاتور، والمادة الترويجية، والـ "تي شيرت"، والنكتة اللغوية، والبحث، وعتبات النصوص (عناوين رئيسة أو فرعية أو داخلية، توطئة أو تقديم، شكر أو تقدير أو تقريظ ... إلخ). ومن الضروري في أي ثقافة، أثناء دراسة معجم هذه الأنواع، نسجُ صورة المعالم الرئيسة لرمزية اللغة فيها، فالثابت أنّ معانيها رمزية، بمعنى أنّها تعبِّر من خلال اللغة عن شؤون مابعد لغوية للمجتمع، على أنه من الضروري التنبّه إلى تموقع Positionality أي باحث من مدونة، كما ورد في معرض تحليل التجربة القَطَرية في الإصلاحات التعليمية.

الدرس اللساني لدى العرب ولدى الغرب

في ما يتعلق بالدرس اللساني العربي الحديث – الذي يرى المؤلّف أنه يدين للدرس اللساني الغربي بجرعة عالية من التبعيّة، نظرًا إلى ما قدّمه الغربي من فتوحات علمية كبرى لا يمكن تجاهلها – يؤكد هذا الكتاب أنّ العربي يمكنه أن يخطَّ مسارات تعزِّز فهم الخصوصية الثقافية للغة العربية. وفي هذا السياق، يضرب مفهوم "اللغة الأم" المعمول به في أدبيات الدرس اللساني الغربي مثالًا. وبحسب رأيه، سيؤدي تطبيق هذا المفهوم على اللغة العربية إلى تعسّف

معرفي يجعل لغة العرب الأم لغةً شبه أجنبيّة؛ فللسانيات الحديثة موقف سلبي من اللغويات الشعبية على الرغم من وقوعها في صلب الأيديولوجيا اللغوية، وأهميتها في إدارة الشأن اللغوي في مؤسسات الدولة، وبخاصة في قطاع التعليم.

إن الدرس اللساني الغربي حبيسُ ثقافته، ولا يحيل إلى منطلقات تأسيسية في ثقافات أخرى بالكيفية التي تُقحم بها اللسانيات الغربية بتعسفٍ في بعض مظاهر اللغة العربية من أجل إثبات كونية هذه اللسانيات، على الرغم من تحليل هذه الظواهر قديمًا في الدرس النحوي العربي بأريحية منهجية تلتزم درجة عالية من الاقتصاد في التوصيف.

يبحث الفصل الأوّل من الكتاب موضوع الترميز اللغوي من ناحيتين: أولاهما إرساء مفهوم سيميائي للرمز يشمل اللغة ولا ينحصر فيها، على الرغم من هلامية مصطلح "الرمز" وتعدد دلالاته بتعدد الحقول المعرفية التي يُستخدم فيها، وتعدد الأُطر النظرية داخل كل حقل منها. ثانيتهما ضرب أمثلة من الواقع العربي للاستدلال على استخدام اللغة العربية رمزيًّا في سياقات تاريخية محددة يبدو فيها مُفاعل الصراع واضحًا، مع رَفْدها بأمثلة أخرى من ثقافات مختلفة تدعم التنظير الترميزي للغات البشرية. وتتعلق أهم خصائص الرمز بدور اللغة في إنتاج هوية الجماعة عبر العصور والجغرافيا وبالتعبير عن هذه الهوية. ومن بين الأمثلة الدالة على ذلك استخدام اللغة العربية المعيارية للتعبير عن الهويات القومية والإقليمية والإثنية والقُطرية والطائفية في القرن العشرين، في أطر سياسية تنتظم فيها استراتيجيات الوصل والفصل والتباين في بناء الأمة والدولة. واستنادًا إلى أهمية الصراع في إذكاء دور اللغة الترميزي، تحدّث الفصل عن تشابك الرموز وتعارضها وتصادمها، فالرموز تخاطب العاطفة بفاعلية أكبر من مخاطبتها العقول بالحجّة، وتحدث أيضًا عن أنّ استنهاض الهمم يتطلب العودة إلى "ماضٍ ذهبيٍّ" يبعث في النفوس مشاعر العز والفخار.

أمّا الفصل الثاني، فيتناول باستفاضةٍ موضوعَ الأيديولوجيا اللغوية العربية وأسباب تأخر اللسانيات الحديثة في دراستها، ويقدّم لها فهمًا مبنيًّا على دراسات سابقة، متجاوزًا إياها في آنٍ، وهو شرط لوصل الدرس اللساني العربي بالحقول المعرفية الأخرى، كالعلوم السياسية مثلًا، التي أوْلَت مفهومَ الأيديولوجيا بتقاطعاته مع علم الاجتماع أهميةً كبرى، وذلك بنَفَس نقديّ يتيح التحرر من المفهوم الماركسي للأيديولوجيا المحرِّض ضد خوض هذا الموضوع في الدرس اللساني العربي؛ انطلاقًا من أنّ الأيديولوجيا وعيٌ زائف في فهم حركيّة التاريخ. وقد ركّز الفصل على الإيمان بغائية

وظائف الأيديولوجيا في المجتمع، ضاربًا أمثلة متعددة ومتباينة لتمثلات الأيديولوجيا اللغوية في الثقافة العربية، ورابطًا بعضها بسياقاتها التاريخية. أما اللغويات الشعبية، فأكد الفصل أهميتها في فهم الشأن اللغوي عبر ربطها بالأيديولوجيا اللغوية، وتأثيرها في السجالات الأيديولوجية المؤثرة بدورها في السياسات التعليمية سلبًا وإيجابًا.

أمّا الفصل الثالث، فقد خُصص لدراسة "القلق اللغوي"، بمزاوجة النظرية والتطبيق في موضوع غاب فيه التنظير في الدرس اللساني الحديث، وهو تنظير قاربه الفصل باحتراز منهجي، خشيةَ العَسَف في تعميم مفهوم يختص بفرد، وهو أمـر حـذّر منـه لـويس كوسـر Louis Coser فـي دراسـته وظائف الصـراع الاجتمـاعي *The Functions of Social Conflict*. قام الفصل بعملية مسح لأهم خصائص القلق في علم النفس الإكلينيكي، مؤكدًا أنّ القلق يرتبط بالخوف والغموض وتفسيرٍ للأحداث يجعل مجابهتها فوق طاقة الفرد أو الجماعة اللغوية، كما أنه يُنتج الكدر فيعمل عَمَلَ مركزِ إنذار مبكّر لاستنهاض الهمم تحسّبًا لما هو آتٍ. ويؤكد الفصل أيضًا انتظام القلق المفرط في معادلة المواجهة أو الهروب، إلا أنّ المواجهة لا تكون فاعلة؛ فهي إمّا تبالغ في تهويل مصدر القلق، وإمّا أنها لا تتناسب مع مبعث القلق، ضاربًا مثلًا على هذا من خلال تعثّر محاولات الإصلاح التعليمي في تجلياتها اللغوية عربيًّا، لأن استجابتها لهموم تخطيط الوضع Status Planning اللغوي تكون بالتركيز على تخطيط المتن Corpus Planning المتعلق ببنية اللغة، من أصوات وصرف ونحو ومعجم وغيرها. ويُظهر الفصل أن من مظاهر القلق أيضًا إعادة إنتاج القلق نفسه، كالقلق اللغوي العربي، الذي لا تعدو معالجته "القصَّ واللصْق" لسرديته الكبرى المتمثلة بتقاطع الأخطار الخارجية مع الأخطار الداخلية لإضعاف العرب والسيطرة عليهم. وحتى لا يُقال إنّ القلق اللغوي هو ارتياب مجنَّح Paranoia يصيب العرب دون سواهم، ساق الفصل أمثلة من فرنسا وبريطانيا وأميركا، وأمثلة عن كيفية استخدام اللغة في الولايات المتحدة استخدامًا ذرائعيًّا للحديث عن قضايا تتجاوز الشأن اللغوي، أهمها معارضة هجرة الأميركيين اللاتينيين إليها.

ومع زعم المؤلف في هذا الفصل أنّ تأطيره النظري للقلق اللغوي العربي غير مسبوق، فقد زعم أيضًا أنّ دراسته اللغة العربيّة والإرهاب في المجتمع الأميركي عقب أحداث 11 سبتمبر غير مسبوقة أيضًا، ويَظهر في الأمثلة التي ساقها أنّ خوف اللغة العربية أو القلق منها في المخيال الأميركي ناجمان عن تعلُّق معانيها الرمزية بالإرهاب، وعن علاقتها بالإسلام، المزعومِ أنه يدفع إلى الإرهاب، إذ لا يختفي هذان الخوف والقلق عندما تُفصح العربيةُ بالترجمة إلى الإنكليزية أداتيًّا عمّا تعنيه، بل يبقيان فاعلَيْن؛ فما تعنيه أيُّ لغة رمزيًّا هو دومًا الأشد حضورًا، وما تعنيه العربية رمزيًّا

لدى الأميركيين يبعث على الاضطراب. ويثبت هذا الكتاب أيضًا أنّ المخيال الأميركي لا يعمل بطريقة واحدة في كل ما يتعلّق باللغة والإرهاب، فقد استثارت محاولة تدريس اللغة العربية في نيويورك حفيظة اللوبي الصهيوني القوي الداعم لإسرائيل، الذي ربط اعتماد هذه اللغة في التدريس بـ "رهاب اللغة العربية"Arab-/ic/-phobia ، المتعلق ببعدها القومي أكثر من إسلامها، على عكس ولايتَي تكساس وألاباما، اللتين اعترضتا على إدخال العربية في مدرستين فيهما انطلاقًا من إسلامية اللغة العربية لا عروبتها. وأوضح الفصل كيفية استخدام المؤسسة الأمنية الأميركية دراسات في اللغة العربية لإلصاق تهمة التطرف بالعرب، وتقريبهم إلى الإرهاب في الأذهان.

ويتطلب التمييز بين بُعدَي اللغة الأداتي والترميزي: أولًا التمييز بين "الاستعمال" و"الاستخدام" اللغويين؛ فمن حيث الاصطلاح يرتبط الأول بالاستعمال اللغوي Language Use (التواصل لتلبية الاحتياجات من دون التفات واع إلى بُعد اللغة الترميزي، كما هو الشأن مثلًا أثناء الحديث عن الطقس أو شراء الحاجيات)، ويرتبط الثاني بالنشر/ التوظيف اللغوي Language Deployment/ Employment، وفيه تُستخدم اللغة أو تُوظّف، على نحوٍ واعٍ أو غير واعٍ، لأغراض ما-بعد لغوية.

ويتطلب التمييز بين بعدي اللغة ثانيًا التمييز بين مفهومَي "الجماعة اللغوية" Language Community (يشير إلى اللغة المعيارية، أي الفصحى، وحمولتها الترميزية المتمثلة بتنغيمات متباينة بين أصحابها) و"الجماعة اللسانية" Speech Community في سياق حديثنا عن اللغة العربية ولهجاتها المختلفة، وهو تمييز قد يتعارض مع بعض طروحات اللسانيات الحديثة التي تعمل بـ "الجماعة اللسانية" التي يعبَّر عنها في اللسانيات العربية الحديثة بـ "الجماعة اللغوية" اعتقادًا من اللسانيين العرب أنّ كونية اللسانيات الحديثة لا يسلَّم بها من دون نقاش، وأن الأصحّ منهجيًّا مراجعةُ "زعم" الكونية ليأخذ في الاعتبار سياق اللغة العربية، بدلًا من لَيِّ ذراع السياق العربي لإدخاله في أفق الكونية. ويتطلب التمييز بين بعدَي اللغة ثالثًا، ربط تخطيط المتن اللغوي (صرف، نحو، معجم، أسلوب، إملاء، ترقيم ... إلخ) بالبعد الأداتي، وربط تخطيط الوضع اللغوي بالبعد الترميزي.

من ناحية أخرى، خُصص الفصل الرابع، وهو في الأصل دراسة متعلقة بالإرهاب وُضع نصُّها الأساس باللغة الإنكليزية، وتُرجم لنشره بالعربية قبل أن يُنشر بالإنكليزية، لدراسة رمزية اللغة من خارجها، وتحديدًا من الولايات المتحدة في

جديد: اللغة العربية في ساحات الوغى: دراسة في الأيديولوجيا والقلق والإرهاب

أعقاب هجوم 11 سبتمبر وتأثيره في الفضاء اللغوي. وبعد تقدّم مقولة خطر أذناب المستعمرين على اللغة العربية في الفصول السابقة، يتعرض هذا الفصل لتحليل صورة نمطية معاكسة تنظر إلى اللغة نظرة تربطها بالإرهاب الذي لحق بالولايات المتحدة، وقد بيّن الأدلة الميدانية التي تدل على أهمية الوظيفة الرمزية للغة مقابل وظيفتها الأداتية. وفي المقابل، تعرض لكيفية نشوء فهم لدينا لـ "الآخر"، الذي قد يكون الأجنبي، كالأميركي في الدرجة الأولى، وقد يكون ابن اللغة نفسها، كما هو الشأن في حالة الحرب الأهلية اللبنانية.

الكاتب: رمان الثقافية